كتاب سلوة الحريف
بمناظرة الربيع والخريف

لفريد الزمان الشيخ الأجل قوام الأدب

أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
رحمه الله

الناشر
شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
1431هـ - 2011
حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة نوابغ الفكر
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الجاحظ،عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ،780-869
كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف /لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
- ط 1 – القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2011
48 ص ، 24سم
تدمك :3-95-6305-977-978
1- الادب العربى -مجموعات
ا- العنوان .

ديوى : 810,8

رقم الايداع : 2011/15595

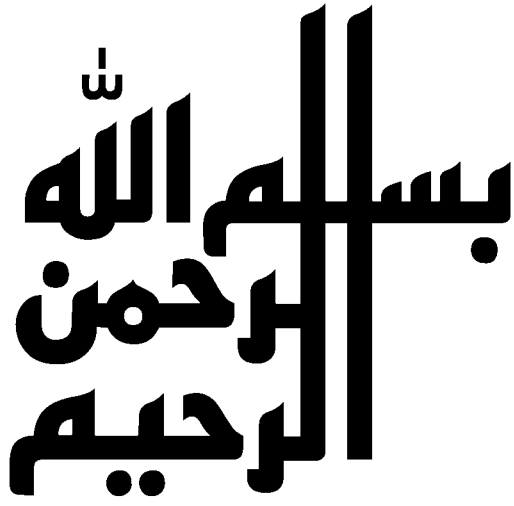
بسم الله
الرحمن
الرحيم

الحمـد لله مقسم القـسم، وبارى النسم، ومديم النعم، ومـزيل النقم. حمدًا يوازى بواطن نعمه، ويجـازى ظواهر كرمه، وإن كان كرمه لا يوازى، ونعـمه لا تجازى، بأقـصى المحامـد، وأبعد جـهد الجـاهد، وصلى الله على رسوله محمد وعلى الطاهرين من أسرته، والطيبين من عترته.

خرجت يومًا وأنا فى خدمة قوام الملك ونظام الدين أبى يعلى أحمد بن طاهر أطال الله فى المعالى لتهذيب المعانى بقاءه، وحرس فى اقتفاء المكارم عن المكاره فناءه، وحـاط على الأفـاضل بأنداد الفواضل نـعمـاءه، وعطف على العلماء بـحفظ أيامه وزمـانه، وجمل الدنيـا بعزة تمكينه فيـها ورفـعة مكانه، متنزهًا ومتفـرجًا من الحفلة بالوحدة متسليًـا، ومتشفيًا ببـرد النسيم عن حرقة كنت بها متصليا، مترنمًا بلواعجى اطفئ لظى صدرى لها بندى دموع سجم.

على أنى أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمـها غير معجم، فاطلعـت بى عينى لتتـخلص مما بها عـلى عين تموج بماء سلسال زلال كـأنها انكدرت من سلاسل فى زلال وإذا قريب منه روضة دعتنى واشرأبت بى على عين أخرى وهى تنفجر من محاجر الأحجار.

هذا الانفجـار كأنها سيف الصـبح سل من غمد الظلام يتهـدد الشهب بورود النهار، أو كأهـا النضناض ينساب على الرضراض فى الأنهار، فـقعدت عليه وحـدى بل بوجدى خاليًا، وبالنظر فـيه ساليًا، أتأمل منه مكانـا خاليا،

وأتنفس نفسًا عاليا، وأمنى نفسى بلعل وعسى، لأنه إذا امتلأت نفس الكريم تنفسا، فلحقتنى رفقة من أهل الأدب، خرجوا للطرب، أو لبعض الأدب، وفيهم شاب كأن جملة الجمال منه خلقت، وتفاريقها عنه سرقت، وعلى جميع الخلائق فرقت، يتصرف بشمائله فى القلوب، تصرف الهواء بالشمال والجنوب. له قدّ نخل فى حشى النحل دقة وصغر حوى طيب الجنى:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما يفعل الخمر

وطرة كالغسق، على غرة الفلق. وأصداغ ترقص على النار من وجنته، وتسلم عليها وتحرق العشاق دون الوصول إلى كوثر فيه وجنته، فيا له من حسن شعر يغبر من وجه المسك لونا، ورائحة وعزًا وصونًا، على وجه يخجل البدر ويرده إلى محله من المحاق، ويشور الشمس ويردها فى المغرب دون الإشراق، فملكنا حسنه وإحسانه، وسبانا وجهه ولسانه، ولحق بى بعض من يخدمنى فاستدعينا بشىء من البوارد، على ذلك الماء البارد، الذى يتلألأ كاللآلى من موارد كالمبارد، وتجعده أيدى الصبا وبلطفه كالهواء وينقيه من كل أذى وهباء، ويتخلل تلك الرياض غدير كالمرآة المجلوة يطلع فيها السماء بنجومها، وكادت تخوض فيه زهرها بل غرقت بينها برسوبها وهجومها، وتجمشها عيون السحاب بسجومها، وقد اخضر شاربها كالزبرجد الأنضر، وافترت عن ثغر ويراغمها بزرقته وصفائه، وبزهر حصبائه، كما تباريها باخضرار نباتها وكما أن السجاء تجارى الأرض باغبرار سحابها المتقطر، كذلك تبارى السماء بإخصرار نباتها المتفطر، وكما أن الأرض تشاكل السماء بأزهارها وأنوارها، كذلك السماء تماثلها بأزهارها وأنوارها، وكذلك الأرض:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤَزر بعميم النبت مكتهل

والسمـاء تقول أن لى أحـد عشر كـوكبًا والشـمس والقمـر رأيتهم لله ساجدين، والأرض تقرأ: والنجم والشجر يسجدان. فبينا نحن فى مفاخرتهما عبـرا، وإن لم تكن نظرا. إذ طلع علينا شيخ مـثر من ثياب الديبـاج والخز، مغرق فى كسى الحـرير مبطنة بالقز، مديد القناة قصيـر الخطى. يقومه الفرح والمرح كالسهم فيمضى ويقوسه السكر أو الكبر فيتمطى.

فحين قـرب منا ملأ الأرواح خفـة روح وظرفا، والأنفاس ذكـاء ونشرا وعرفـا، والقلوب ذكاءً وبشـرًا وعرفـا، والعيون جـمالاً ومـلاحة وبهـجة، والمسامع بيانًا وفصاحة ولهجة. فقمنا واستقبلناه بل طرنا إليه، وطرنا حواليه، بقلوب لهيبته خافقة، ونفوس على شـيبته رافقة، فبرَّنا وسرَّنا، وحفنا ورفنا، وخص كلاً منه بعرفه وإحسانه. وأبهج جملتنا بمليح لسنه وفصيح لسانه.

فأقبلنا عليـه وتركنا الشاب الذى تملكنا حسنًا وأصبـانا، وافتنصنا ظرفه وسـبانا. وإذا للشـيخ بهـاء وأبهة، والفكرة فـيه مـوقظة للألبـاب ومنبهـة، ومجالسته مـوجهة عن الخمول ومنبهة، وله شعر أبـيض مشرق يخمل بياض البازى، ولون أحمر ناصع بخـجل حمرة الياقوت البهـرمانى، وعيناه تذكران حسن عيون النرجس لريان، وحاجبـاه يبصراننا هلال الفطر سروراً وحبوراً أو هلال رمضان، الآمر بالبر والإيمان. وإذا له ثغر يضحك من ندى الأقحوان، ولونه الدرى يهزأُ بالمرجان وزنفـه يشمخ تيها على الفتيـان، ومحاسنه تضىء ببياض النعمة، وتزهو بنور النعمة، وتلوح بطيب النعمة فجمعت النعم أنواعًا وأولوانًا، واستكملت الطيبات ضروبًا وأفنانا.

وله صدر فسـيح الأرجاء، يتسع لواردى الخوف والرجـاء، فأقبل علينا بالوقار والسكينة، والبـلاغة المكينة. وقال الآن إذ سكنتم إلىَّ وتمكنتم، فـفيم

كنت؟ فقلنا له: أعجبنا هذا الماء الصافى ععن الكدر، وهذا المكان الخالى من القتر. فقال الشيخ: هكذا يكون الخريف يصفو ماؤُه، وتصفو نعماؤُه، ويرق هواؤُه، وتخف أرواحه، وترتاح بنعيمه المقيم قلوبه وأرواحه.

فانتدب الفتى الطرى، الشاب الأريحى، الذى تقدم ذكره وقال فى غضب وحرد يا خرف أبا الخريف تدل علينا وهو زمان أمراض مزمنة، وفصل جملته موهية موهنة، وحين طبعه حين وحى، ومزاجه موحش وبىّ، ووجهه عابس، وترابه يابس، وهواؤه كالح، وماؤه بطبخ حرارة الصيف إياه زعاق مالح. ولم نسيت فصل لربيع وفضله وسيماه ونشره، وطلاقته وبشره، إذا أقبل يتهلل ويتبسم، ويكاد من الحسن يتكلم.. طرى الأحشاء والحواشى، ندى الغوادى والغواشى، لذيذ الأبكار سجسج الهواجر طيب الأصائل.

فقال الشيخ بركون، وتودة وسكون: ما اسمك أيها الظريف الطلق الوجه واللسان واليد، الماضى المضىء كالسيف فى الحد، والجد والخد، اللطيف فى المنظر والمخبر والمطلع والمقطع، فقال: اسمى الربيع بن الطيب، فما اسمك أيها الشيخ الكريم فى أخلاقه وأحلامه، السيد الغافر بعفوه خطأ غلامه، المتجاوز عن ذلل كلامه. فأنا كما قال السامى:

تبسطنا على الآثار لما رأينا العفو من ثمر لذنوب

ونحن أولاك نطلب من بعيد لعزتنا وندرك من قريب

فقال: يا حبذا وجهك المبارك، قد جل باريه وتبارك، أهلاً بك وبقومك، ومرحبًا بوقتك ويومك. اسمى الخريف بن المنعم فما ضجرك منى وأنا عن نفسى ناضح، ببرهانى اللائح الواضح. فقال الربيع: وأنا كذلك فاعذرنى وقد عرفت طبعى فى تلونه وإن كان مقبولاً وحالى فى

تفننه وإن كـان لذيذًا مـعسـورًا. فـقال الخـريف: أنت يا فـتى معـذور، بل مشكور.

فروحك الريح تخفى كل منتنة ونارك النور تمحو كـلمة الظلم

وأنت من فى وجـهه شافع يمـحو إساءته وفى حـسنه دافع نافع، فـهذا يزين كل مليح، وذاك بدفن كل قبيح:

وقـبيح الصـديق غـيـر قبـيح ومليح الـعـدو غـيـر مليح

فلم تفـضل الربيع على الخريف، يا ربيع الـظرف، وقد عرف الـعالمون بأسرهم واعترف العالمون أن الربيع فى طبعـه كما وصفت متلون قليل الوفاء، كثيـر الأخلاق فى الجفاء. لا يوقف على طبائعـه وهى كأبى براقش ولا يوثق بسـجاياه وهى كـأبى قلمون بينـا ترى الشمس سـافرة نقـابها، وقـد أرسلت سحـابها، وأوحلت طرق المارين وبـلت ثيابها، وبـينا ترى أوجه السـماء فى بكائه وانهلاله واسـتهلاله إذ عـاد إلى ضحكه وتهلله واستـغرابه، وبينا تراها وهى تقرب سحبها وتبعد، وتصوب رياحها وتصعد، وتبرق بسحبها وترعد، إذا بدا لها واستبدلت بتلك الحالة إبدالها.

ليس كالخريف ساكن الجأش وقور الطباع ثابت الشيم مطمئن الشمائل، يوقظ الناس للاستعداد للشتاء بالجنائب طورًا وطورًا بهبوب الشمائل، وينبههم حينًا برده الخفـيف الرفيق القارص بأنامله وتارة بغيمـه اللطيف الرقيق اللاحظ بنواظره وهو فـى هذه الأحـوال كلهـا يميـرهم بريعـه الـوافى فـهم يمتـارون ويحـتكرون، ويتوسـعون فى مـا ينالون منه ويذخـرون، ويقتنون فـواكهـهم ويعصرون ويحتظرون.

قال الربيع

أما مـا ذكرت من تلون طباع الربيع، وأه كل سـاعة يأتى بخلق بديع، وطبع غريب وكيف ينكر التلون من طبائع مختلفة، وأمزجة مركبة من عناصر غير مؤتلفة. وإنما فعل ذلـك لكى يحيى كل عنصر بمزاجه، ويهز كل طبع بما يقتـضيه من حـاله لافتقـاره إليه بالمناسـبة واحتـياجه. ولكى ترتاح الأمـزجة بالتجدد بعد الأخلاق وتنتعش العناصـر عن البلى فهو يتدارك بفعله اللطيف، ما أفسـد الخريف، وذلك التلون حبيب إلى النفوس لأنه ركب من طبـائعها، ولذلك شبه الشاعر معشوقة به فى فعله فقال:

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله　　صـحو وغـيم وأبراق وإرعـاد

كـأنه أنت يا من لست أذكـره　　وصل وهجـر وتقريب وإبعـاد

وبعد فالنفس تمل والقلب يسأم الدائم والحمض أروح والجديد ألذّ. وأما ما ذكرت من سكون الخريف ووقاره فإنما هو لـبرده ويبسه والحى تكون حياته بالحـرارة مع الرطوبة، والميت يكون موته من البـرودة مع اليبـوسة، فـالربيع يحيى والخـريف يبلى. وأما ما ذكـرت أنه يمير الناس المطاعم ويفـيض عليهم المناعم، فإن ذلك كله مما نتجته أيدى الربيع وقدمه تديره المصيب ولورثة عمله النافع وولدة كسبه المفيد وعلى الأيام يظهر عمل المدير المصلح، وبعد الأوقات يتبين تدبير العامل المفلح.

قال الخريف

أما مـا ذكرت من الخريف وأن طبعـه بارد يابس كطبع الميت، وإن طبع الربيع حار رطب وهو طبع الحى، فقد جهلت أو نسيت وأخطأت أو خطيت، فـإن الحرارة أوحى قـتلاً وأعـجل إهلاكًـا من البرودة، والـدليل عليه حـال المبرسمين بالقياس إلى حال المفلوجين والكيفية الباردة اليابسة هى للأرض التى منها خلقنا وإليها المـصير، وعليها قرارنا ومنها غـذاؤنا وهى الملجأ والنصير، وهى طبع السوداء التى هى علة الآفات والثبات والحلم والوقار وأصحابها من ذوى العلوم الشـريفة، والصناعات اللـطيفة، هذا إن سلمنـا أن طبع الخريف بارد يابس. وأما ما قلت أن ما يميـرهم الخريف فمن صنع الربيع فكيف يكون ذلك والخريف وقت البذر والشتاءُ خليفته فى تربيته ولذلك قال الشاعر:

إن الشتـاء على كلوحة وجـهه لهـو المفـيـد طلاقـة المصطاف

فما للربيع إلا إخـراجها مع الحشرات وإظهارها مع الهـوام فيبلى إبلاءً حسنًا مشفوعًا بسوءِ بلا. ويقـترف فعلاً واحدًا ممزوجًا بألف زذى، ومع ذلك فهو الذى يهيج الأخلاط الفاسدة فى أبدان الناس ويثير الكيموسات الرديئة فى أجسادهم ويذيب الكيفيات الخبيـثة عن أجوافهم، وهى جامدة ويحلل الحرارة الغريزية عن أحشائهم، فـتذهب بها فى الهواء المشاكل لطبعهـا ويترك أعماق أجوافهم هامدة خامدة ويولد فى بشائهم وظواهرهم القروح والجرب والحكمة

والحصبة والحميات الدموية والأعلال الحارة، والخريف يطفئ هذه الأمراض الدموية ويميت الحيوانات المعفنة ويفنيها أو يجعلها كالفانية من السكون كالحشرات والهوام وهو الذى يعد الطباع بميزانه ويسوى الأمزجة فى أبانه، وينعم الاس وسائر الحيوان بأنواع نعيمه وألوانه، وينصف النهار والليل عدلين مؤتلفين، ويجعل الغنى والفقير بميرته مثلين غير مختلفين، فبيوتهم مملوءة حبوبًا، وحبابهم مشحونة مشروبًا، ونهارهم مشغول باقتناء المير والذخائر التى أوسعها عليهم الخريف لشتائها، وحضهم كل بكرة على اقتنائها، وليلهم ملهى بالشراب الطيب والفواكه اللذيذة والرياحين الأرجة والخيرات البهيجة.

* * *

قال الربيع

أما ما ذكرت من الربيع وأن حره يودى أو يؤذى بالإنسان وسائر الحيوان، ووصفت العلل الحارة كالحميات الدموية مثل السرسام ونحوها من شدة الأسقام فقد أوهمت، أو وهمت، وتغافلت، أو أغفلت، إذ الربيع فى طبعه معتدل المزاج، ولذلك قال جالينوس من لم يهزه الربيع فهو فاسد المزاج، محتاج إلى العلاج، وإنما يقع أكثر هذه الأمراض فى صميم القيظ وحميم الصيف الحار، وإنما تأخذ الجار بذنب الجار.

والربيع باعتدال طباعه والتئام مزاجه وانتظام أحواله وائتلاف أخلاقه وأفعاله يقوى كل طبع ويبعث كل مزاج وينبه من فسد بعض الأخلاط من مزاجه، ليتشمر فى علاجه، ويحيى كل موات بعد ضياعه ومفتقده، ويضعف كل بال عن مرقده، ويذكر بالحشر، ويدل على صحة النشر.

وأما هذه الحشرات والهوام فإن الله تعالى خلقها ولم يخلها من فائدة تعود بمصالح الخليقة، ولم يخلق شيئًا عبثًا بل كلها يختص بمنفعة للبرية، وإن سمومها إذا أخذت منها وأخرجت تدخل فى الأدوية المجربة، ويستعملها الأطباء فى الأدواء المؤذية. ويستشفى بها فى الأمراض المردية. ومع ذلك فإنها أعنى الهوام والحشرات تجتذب من الأرض وسائر الأركان السموم التى تخالطها مما يشاكلها، وتستلب منها ما تغتذى به مما يلائمها ويوافقها، فتبقى

الأركان للنبات الذى يحتاج إليه الحيـوان صافية عن كل شائبة وقذى، ويخلو النبات والأغذية نقية من كل عائبة وأذى.

وأما ما قلت فى الخريف، وأن يوسع على الاس وجميع الحويان مآكلها وأغذيتـها، ويفيض عليهـا فواكههـا ورياحينها وأنبـتتها، فـهذا بأن يكون من معائب الخـريف أولى من كان يكون فى مناقبه وهو أحد الأسـباب التى يكثر بها الأسقام المزمنة فى الخريف، فإنه يستكثر الناس من أكلها فتستوبله طبائعهم فيجلب المرض، أو الحرض أو السبب له والعـرض، ولا يحتمله مزاجه الذى أقحله حر الصيف وأنحله ضرم القيظ واستصفـته وقدة الهواء، كما يستصفى التنور المسـجـور رطوبة الشواء، وحلل حـرارته الغـريزية، وفشّ سـخونتـه الطبـيعـية، حـر الفصل فـلا يطيق ما يأكـله بالخريف ولا يحـتمله مـا يناله فيستوخمه ويستوبله ويولد عليـه الداهية الصماء من الأمراض والمظلمة العمياء من الأوجاع ولذلك جاء فى الخبر أن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم.

والربيع بحـمد الله مقل من الـفواكه المضـرة والأنبذة النيـئة والأطعـمة الوبيلة الوبيئـة، والأغذية الوخيمـة الرديئة، وغذاؤه للناس من الخـبز الحنطى النقى واللحم من الرضيع والشراب العنبى العـتيق المرى وتنقلهم بالفواكه التى قلما تعفن بمنزلة الرمان والسفرجل والتـاح ونحوهما مما يبقى فى الشتاء بقوته ومشمومهم من الروائح الرائح اللائح، والنور العبق الروائح.

والساسفـوم الذى يأخذ بطبع الربيع فى أوانه فيكون حارًا رطبًـا لا كما يكون فى الخـريف باردًا يابسًا مـولدًا الزكام، كـقطر الركام ومورثًـا الصداع، يشق الرأس بانصـداع، وهما من خـصائص الخـريف أعنى الزكام والـصداع

ومسموعه من أغانى البلابـل والقمارى ونحوها التى يهزها الربيع برواحه التى تعبر عن العبير والعود والقمارى لأن الربيع كما قال الزعفرانى:

وفـصل فيـه للروض احـتيـال لان جـميـع ما لبـست حـرير

وللأغـــصـان مـن طرب تثن إذا جـعلت تغنـيـهـا الطيـور

***

قال الخريف

يا فتى مـا أعذب لسانك، وأعـجب شانك. وأملحك فى فصـاحتك، وأفطنك فى ملاحـتك، حيث تعجـزنا ببيانك الشهـى، كما تسحـرنا بلقائك البهى، فتأتى إلى ما أجمع العالمون على اسـتهجانه فتحسنه. وما أطبق الحكاء على استحسانه فتهجنه.

فإنـه اتفق العاقل والجـاهل والبار والفـاجر على بغض الهـوام المردية، وقلى الحشرات المؤذية، وكراهتـها واستقذارها، واستنجـاسها واستنكارها، لما تعافـه الطباع فى إحـساسهـا بالابتداء، ولا تخافـه المعارف من مـضارها فى الانتهاء.

وأنت تصفـها بكثرة منافع ومـصالح وتكابر العـقول السليمـة والعادات المستقيمة. بلسانك الحول القلب وظرفك المخلط المذيل وبيانك المعن المفن وما اتفق الناس على السعى فيـه والحركة له والبقاء به والحـرص عليه والنين إليه، ومنافسـة بعضـهم بعضًا لأجله وبـالجملة ما به صـلاح العامل والآجل وفـيه خيرات المعاش والمعاد حيث تعيبه وتذيمه، وتهضم رايك بذلك وتضيمه، وهو نعمـة الله التى جعلهـا مادة الحيـاة وصورة البقـاء لأجل من يستكثـر منه فلا يستمرئه. وبسبب من يستعزز فلا يهنئه وتروى له الخبر الوادر فى الربيع وتحيله عن حالته، وتقلبه عن قالبه وهيئته، فإنه قال إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا

أو يلم وإنما قاله للمواشى دون الناس فإن الربيع لا ينبت شيئًا ينالونه فيحبطون منه فويح لسانك إنه حسام، ألدّ الخصام، ملتهم المحامد قاذف المذام.

أما الكلام فى الحشرات والهوان فإن استضرار الناس بها معروف وانتفاعهم بسببها منكر وغوائلها جلية، وعائدتها خفية. وأما ما ذكرت أن بسمومها يستطفع بعض الأخلاط الفاسدة فلعل تلك الأخلاط منها تولدت فى النبات وبها اختلطت بالأمزاج والأمشاج وبروائحها امتزجت بالحيوان فهذا ما بطن من حالها وما كمن من أفعالها فأما الظاهر فإن الأفاعى والحيات، والعقائب والجرارات، ونحوها فهى قاتلة معطبة أو مؤذية مؤلمة ولا تخلو من إتلاف، ولا تعرى من إدناف.

وأما النعم الطيبات التى جعلها الله رزق الخلق وأنبتها فى الخريف فهى مبتغاة مرتضاة محبوبة إلى الخلق مقتضية وهى تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين وبها وعد المتقون فى دار البقاء. وإياها منى الأبرار إلى مثابة الثواب والجزاء. ولكنك أعطيت مبتدئًا ما استرددت منتهيًا، واصلت قياسًا، تبنى عليه ثم هدمت منه أساسًا.

فقلت بآخره ينال الإنسان فى الربيع من المآكل والمشارب والمشام والمسامع كيت وكيت، وحكيت من طريق التنعم ما حكيت، وما افتخرت إلا بما أقناه الخريف وأعطاه، ومهده للخلق ووطاه، وإن لم يمكن به الاستمتاع إلى وقت الربيع، وقد يبقى منه الكثير إلى طلوع الخريف وقلما يستمتع به المرتبع وذلك لأنه مملوء بسخونة الهواء، الذى يمنع من استيفاء الغذاء، ولا يهنأه أن نشط فى الامتلاء، وهو مملؤ بأخلاطه الهائجة، وكيموساته المائجة،

ويعنيه من أمـرها ما يثنيه عن تمتعـه ويضجره بعمره، فـضلاً عن تفقد عـيشه بالتنعم وتعهـد أمره، اللهم إلا الأغنياء الذين يقل عددهم، وتـكثر عددهم، ولهم أيضًا حاشية وغاشية، وعليهم غادية وعاشية.

فالحاجة عامة والغنية والقنية فى الربيع معدومتان ثم إن وجد واجد فهو كمعـدوم لأن أيامه مشغولة مزحـمة أولها من الحوائج البشـرية، وهى مشغلة ومحجمة أوسطها بالحرارة الشمسية، وهى مبغضة ومقذرة آخرها من الحشرات الأرضية، والقاذورات الهوائية، والعفونات الربيعية.

وليله غفوة كحسوة طائر، أو قبسة عجلان أو خلسة زائر. وأما المخترف فنهاره بقدر ما يكتسب فيه ويقتـرف، ويعمل به ويحترف، ويقضى المهمات، ويكشف الملـذات، وليله للطرب، وقـضـاء الأرب، والتنـعم والعـجب كل العجب ممن يسـتوخـهم فيه مـا يناله من الطعام، وهو يقـوده بأشهى الأدام، ويوسقه بأهنأ المدام.

وذكر جالينوس أن الأوباء التى تقع من العـفونة تعم أفناء الناس إهلاكًا وإفناء، إلا مدمنى الخمر فإنهم يتخلصون لأ فضول الخمر لا تتعفن، فالخريف يمتع بالطيبات المطلوبة، والملاذ المحبوبة، ويصلح مـا أفسده القيظ بمزاجه الحار اليابس بترطيب الشراب المرى، ويسوى ما عوجه الصيف من النحول والذبول بتغذية الطعام العنى، فهذا صلاح الخريف وفساد الربيع.

***

قال الربيع

لله أنت من شيخ يبهر بل يبهت العقول، فى ما يقول، ويعمى بل يعمه الذكى الفطن، بما يظهر مما يريد أو يبطن، إلا أن كلامه لا يعدو مناعم المطاعم أو مطارب المشارب والشيخ مثلك يجب أن يقنع من الدنيا باللذات التى تروح الروح وتنفس النفس وتقر العيون وتسر القلوب وتطرب الأفهام الذكية، وتطرى الأوهام الصفية، من مباهم الربيع وملاذه وطيباته ومساره. فكلما صعد الناظر فيه ناظره رأى وجهًا للسماء ببهجة البيضاء أبلج، وعينًا سوداء من ظلام الغمام ذات حدق أدعج، وهواء باعتدال قوامه وحسن نظامه جد سجسج.

والشمس تسفر حينًا وحينًا تتقد والسماء تخلع طورًا وطورًا تنسحب والرعد يقهقه من برق يبتسم، ونبل الوبل يرتمى عن قوس فى معارج الهواء تتلوَّن وترتسم والسحاب كخليع من الفتيان يسكب دمعه وقد هزه طرب الراح. والنسيم نشوان والجو صاح، وكلما صوب ناظره إلى الأرض صعد بصره بوشى ديباج حكته يد الربيع ووشته، ونمنمته أنامله بضروب من الرقم ونقشته، وطرزته من الورد باحمر رغمًا للياقوت وأصفر غيضًا للعين، وأبيض خجلاً للدر واللجين، وصبغته أعنى الورد آونته على لونين ليتسلى به العاشق والمعشوق، ويتفاءل باجتماعهما الشائق والمشوق، ومنعت منه طورًا باللين الناعم حاسة اللمس وتارة بالرائحة الفائحة حاسم الشم ومرة باللون الرائق

الرائع حاسة البصر ثم جلت كل وقت عروسًا من الرياض فى ألوان من الأزهار، وأنواع من الأنوار، وقد غسلتها أيدى الغوادى ومشطتها لمقابض الروائح، وعطرتها من النسيم المسكى بأطيب الروائح، فهى تختال وتتبرج، وتتعطر وتتأرج، وترفل من حللها وحليها بين مرقم ومنقط، ومسهم ومخطط، ومسير وملون، وموجه ومعين، ومقرط ومشنف ومتوج ومعصب ومكلل ومزبرج، وممسك ومعنبر، ومصندل ومكفر، ومدرهم ومدنر. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وصيغته، ومن يأته بمثل صيغة لا صنعته، وهل له شريك فى صنعته:

وكأن السماء تجلو عروسًا وكأنا من قطره فى نثار

وكأن الرياض تنظر إلفا وكأنا لحسنها فى نظار

فالربيع أنموذج الجنان وترابه المسك الأصهب، والعنبر الأشهب، والكافور الأزهر، وهواؤه لا حرّ ولا قر، وماؤُه كوثر، وأنهار من ماء غير آسن وأنهار من عسل مصفى وأنهار من خمر لذة للشاربين، كذلك ماء الربيع خلوقى فى اللون عسلى بالذوق خمرى بالصفاء والاستمراء، وأما ما ذكرت من اعتدال زمان الخريف المسوى بالميزان فهذا الاعتدال بالحقيقة موجود فى الربيع، فإنه معتدل الليل والنهار والأصائل والهواجر، وذلك الاعتدال الذى هو للأوقات موجود أيضًا فى الكيفيات لاستوائها فى الوزن من الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وهو مرضى.

والاعتدال الذى للخريف مسخوط الكيفيات لخروجها عن الاعتدال إلى البرودة واليبوسة، فالربيع من الأركان بمنزلة الهواء فى اعتداله ولطافته. ومن أحوال العمر بمنزلة الصبى فى طراوته وطلاوته، ومن الأخلاط بمنزلة الدم فى

عـذوته وحلاوته، لأنـه شبـاب الزمـان، وريعان الأكـوان، وعنوان العـام، وعنفوان الأيام، وبـاكورة العمـر، وبكر الدهر، وأنف الكاس، ورأس النفس بل هو عين كل رأس، ومطلع القصيـدة، وأول الجريدة، وبالجملة الربيع لب الزمان والخـريف قشره والربيع نقيـه والخريف عظمه والربيع صفـوه والخريف كدره والربيع سلافه والخـريف عكره والربيع نديه والخريف دردیه والربيع أنفه والخريف ذنبه. ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا، والربيع صدره والخريف عجزه وليست الأعجاز مث الصدور.

* * *

قال الخريف

تبين أى الفصلين أكثر مناعم، وأوفر مكارم، وأوفى إغناء وإقناء، وأقنى إعطاء وإيلاء، وأصفى ابتداء وانتهاء، وكل منا يمدح صاحبه ومن يمدح العروس غير أهلها ويذم قرنة ولا تعدم الحسناء ذامًا، فعلينا أن نبين وجه التفضيل بخصائص كل منهما وأنت تدعى أن الربيع أبين صفاء وأحسن اعتدالاً وأولى التئامًا، وأبلغ إنعاما.

أما الاعتدال بالذات فغير موجود للأشياء الكائنة الفاسدة لأنها لو اعتدلت وتكافأت قواها، وتساوت أجزاؤها، لامتنعت عن الفساد، لأن كل واحد منهما منع صاحبه عن القهر والعناد، وأما الاعتدال بالإضافة فإنه يكون فلنبحث عن الفصلين أيهما أبين اعتدالاً فقد علمنا أن الربيع أوله عند مبلغ الشمس رأس الحمل، والحمل تأثيره بالحرارة واليبوسة ولفضله برودة ورطوبة ورثهما عن الحوت الذى استدبره وبرودة ويبوسة يستفيدهما من الثور للذى يستقبله والميزان فى نفسه تأثيره الحرارة والرطوبة ولفضله برودة ويبوسة مستفادة من السنبلة التى استدبرها وبرودة وطوبة من العقرب التى يستقبلها، فإذا قوبل كل واحد منهما بصاحبه ساوى الحوت والعقرب والثور السنبلة فى كيفياتها وبقى الحمل فى نفسه حارًا يابسًا لأنه بيت المريخ وشرف الشمس وناهيك بما لهما من الحرارة واليبوسة والميزان بيت الزهرة وهى أحد السعدين

فبقى للميزان الاعتدال ولذلك سمى به؛ لأن فصل الخريف استفاد من الصيف حرارة ويبوسة ويستقبل من الشتاء رطوبة ويبوسة وهو فى نفسه حار رطب.

وأما تشبيهك إياه بالشيخ وتشبيه الربيع بالصبى ثم تفضيل الصبى على الشيخ فهو أمر غريب ومعنى بديع وهب أن الخريف فى طبع الشيخ والربيع فى طبع الصبى أفى الدنيا أحد يفضل الصبى على الشيخ، فإن للصبى رطوبة موجية مضطربة تمنعه عن جودة إدراك المحسوسات فضلاً عن إدراك المعقولات.

والشيخ ذهبت عنه رطوية الصبى وانفصلت منه حرارة الشبيبة المفرطة واعتدلت كيفياته وتكافأت قواه وستاوت أحوال مزاجه فلذلك يكون أدرك وأدرى، وأبلغ وأبلى، وألطف وألطى وأذكر وأذكى.

وشبهت طبع لربيع بطبع الهواء فلعمرى إن الميزان أليق بهذا التمثيل من الحمل لو أنصفت فإن المنجمين والأطباء أطبقوا على قولهم أن الميزان هوائى أى له طبعه وكذلك الدم.

وأما ما ذكرت أن الربيع استبد بالورد والنور والزهر واختص بالشراب الصافى والماء الخلوقى والهواء الرقيق والسماء المبرقة المرعدة فقد علمنا ذلك.

أما الورد فقد يكون أيضًا فى أيام الخريف وخصوصًا النسترن وهو أطيب ألوانه وكذلك النور والزهر وكلها فى الخريف أطيب منها فى الربيع لأن رائحتها محصورة فيها غير منبعثة عنها، وإن كان الربيع يزهى بالورد السريع الورود العاجل الصدور الذى لا يتشممه الشام صالحًا وإذا هو ذابل ولا يشمه اللامس وافيًا، وإذا هو ذاوى ولهذا يعير العشاق معشوقيهم بالانتقال عن

العهد، والزوال عن الود، ويشبهونهم بالورد ويتشبهون بالآس وإنما منعهم أن يتشبهوا بالنرجس مع بقائه، وحسن عهده ووفائه، لأنه يكون تزكية لأنفسهم وتفضيلاً لذواتهم على معشوقيهم بالحسن الرائع البهج، والطيب الريح الأرج، والطرف الفاتر الغنج، والقد المستوى المنعرج، هذا مع بقائه ووفائه وإمتاع بنفسه جملة أشياعه وأتباع والخريف مختص به وبالزعفران أيضًا، وهو من الحسن ولطيب، والتفريح والتطريب، والنفع فى أدوية كثيرة ومعاجين جمة وزرائر عزيزة ما لا خفاء بهوله مدخل فى عداد العطر والطبخ والأدوية وإصلاح الأغذية وتطبيب المأكل ويبلغ فى التفريج مبلغًا لا يدركه شىء إلا العمر وقد يلقى فيها ويسقى الشارب تعمدًا فيصير به ضاحكًا آتيًا بعجائب، من المطارب والملاعب.

وأما الشراب الصافى فقد يكون أيضًا فى الخريف أصفى وأعتق منه فى الربيع ويفضل الخريف بالحديث الطرى وما للربيع فمن الخريف استفاد وكل خير له من عنده والشرب من أوفق الأشياء بالخريف وهو أصلح منه فى سائر الفصول لأن الشراب فعله التسخين والترطيب لأن هذا الفصل مكتس ومكتسب من الصيف يبوسة ومن الشتاء برودة فيسكر سورتهما به ويفل غوائلهما بسببه وهو ضار فى الربيع لأن فصله اجتلب رطوبة من الشتاء واكتسب حرارة من الصيف فلا يقوى على حرارتى الشراب والفصل ورطوبتهيهما فلا تحتملهما طباعه ولا يستقل بهما مزاجه وهو ضار أيضًا فى الصيف لإفراط الحرارة، وفى الشتاء أيضًا لكثرة رطوبته فأوفق الفصول للشراب الخريف وتعديل المزاج قلما يتأتى إلا لمن يتعاطى الشرب هذا مع ما فيه من الطرب والسرور والفرح وأجمع الأطباء أنهم ما وجدوا شيئًا يقوم

مقامه فى تعـديل المزاج وتسوية القوى بلا مضرة واجـتلاب الفرح والمسرة إذا أخذ على وجهه منه ولذلك قال فيه القائل:

هما ما هما لم يبق شيء سواهما حديث صـديق أو عتـيق رحيق

وهونت حلو الحـادثات ومـرها بحلو حـديث أو بمر عـتـيق

وأما الماء الخلوقى الذى اعـتددت به فمـا أدناه من اعتداد، وأقـصاه من سداد، وأى خيـر فى ماء اختلط بالطين، وامتزج بالـتراب والصلصال المهين، فلا يمكن الشارب العطشان أن يقربه، فضلاً عن أن يشربه، وأما البرق والرعد فأى فائدة فى بارقـه، ربما عادت شر صاعـقة. وحرقت أشخاص كـثيرة ولا تخلو من إحراق قط إذا كثـر حتى أنه يذهب كثيراً من الأثمار مـثل الكمثرى وغيره.

وأما الرعد فإنه فى قلة المنفعـة كصوت الطبل بل دونه فإن فى هذا إنذار بأمر حادث وسلـطان طارئ والرعد يهدم كثـيراً من الأبنية البرية ويفـزع جمًا غفـيراً من البـرية ولهذا يقال لمن يتـهدد بـباطل فلان يرعد ويـبرق كمـا قال الشاعر:

أبـرق وأرعـد يـا يزيـد فـمـا وعـيـدك لى بـضـائر

***

قال الربيع

ما أحسن كلامك لو كنت تراعيه فلا تنقض فى القابل ما تبنيه فى الغابر زعمت أن الخريف تأثيره بالحرارة والرطوبة لأن الميزان يتولاه وهو هوائى دموى ثم جئت إلى ذكر الشراب وقلت هو موافق فى الخريف لأن طبع الخريف بارد يابس وطبع الشراب حار رطب ونسيت ما ذكره الحكماء فى طبع الخريف وأنه بارد يابس مبرح، مكرب مترح.

ولذلك كانت أمراضه مزمنة وإطباقهم كافة أن طبع الربيع حار رطب مفرح، مطرب مروح. ولذلك صارت الدماء به فى الأجساد منبثة، والحرارة الغريزية منبعثة. وادعيت أن الشرب فى الخريف أوفق وأطيب وأغفلت أن الشراب حار رطب وكذلك الربيع فالملاءَمة بينهما أكثر. والموافقة لهما به أوفر والصحيح يتغذى بالمشاكل الموافق والمريض يعالج بالضد وهبك لم تعلمه، أما شهد لك الحس الصادق بطيب الشراب المورد على الورد، أو ما سمعت ما قال فيه القائلون. وما تقلب فى أفانينه الشعراء والملهون،أو ما بلغك أن أحدهم يحلف ابنًا له ألا يشرب فلما بلغ إلى آخره قال أو زمان الورد أيضًا وامتنع عن اليمين، ووثق أن يحنث فيه أو يمين.

وما حكى أن حائكًا فى زمان المأمون كان يعمل عمامته وقته أجمع أكتع لا يستريح ليلاً ولا نهارًا، ولا يجم سرًا ولا جهارًا، ولا يترك عمله فى

الجمعات والأعياد ولا يفتـر عن شغله بالنوائب والمصائب فإذا جاء زمن الورد ألقى حفه وأنـشد شعرًا واشتـغل بالشرب أربعين يومًا ووصفت حـاله لمأمون فأجرى عليه ما أغناه عن عمله، وأجـزأه عن حياكته وشغله، ولو ذكرت كله لتعسر الخطب وطال الخطاب، وعرضت حبال المقال وامتدت طنب الأطناب.

وإنما قلنا ذلك لأن الشراب والربيع يتـزاوجان بالامتزاج، ويتـحدان فى اللازدواج، فـيقـوى فعـل الروح لاتخاذها بالراح وهـذه هى علة الخمـر فى اجتلاب الفرح والأريحيـة والهزة التى تحدث للشارب، وذلك لأن الدم ينبوع الحياة ومطلع السـرور بزيادة الحرارة الغريزية ولهذا يكثـر الفرح والضحك فى الصبيان ولمن يغلب عليه الدم وبهـذا السبب بعينه يستولى الطرب على الناس فى الربيع لأنه فصل مـعتدل والغـالب عليه الحرارة والـرطوبة وهما طبع الدم الذى هو ينبوع الروح فقد تبين أن الربيع يزيد فى الروح ويمد فى الروح ولهذا المعنى اتفق اشتقاق الروح والراح والروح كلها من الريح معنى مصيبا وأحسن ابن الرومى حيث قال:

والله لا أدرى لأيـــة عـــلـــة يدعـــونه للراح بـاسم الراح
ألريحـه أم روحه تحت الحـشا أم لارتيـــــاح نـديمه المـرتاح

ويسمى الدم أيضًـا نفسًا لهذا المعنى ولمشـاكلة الربيع الدم الذى هو مادة الروح وعنصر النفس يهيج الربيع الدم خاصة ويثير سائر الأخلاط عامة، وفى إثارتها فائدة خفيت عليك وهـى لكى يتدارك بالمعالجة والمداواة وشرب الأدوية التى تجعل الأجساد منقاة من الفضول مصـفاة مسواة والربيع ينشر حتى الجماد وينبت حـتى الأحجـار، فـضلاً عن الحـشائـش والأشجـار، ويطلع الأزهار والأنوار، وينجم الأوراق والأثمار، ويظلل الـسماء بالمطارف الغبـر، ويفرش

الأرض بالمطارح الخضر، ويـجلل الجبال بالحلل الحمر، ويـعقد على الرؤوس آكلة من الأشجار المتشعبـة ويحلل بها نتارا من الأنوار المونقة وينصب للطيور منابر تغنى عليهـا وتذمر أطيب الأغانى والزمر، ويطيب للناس لـذيذ العمر، فكأنه يضمهم عرس واحد ويجمعهم دعوة جفلى، ويقريهم مأدبة فوضى، أو كـان كلهم ملك الأرض بأسرها وكـأن أزهارها وأنوارها دراهم ولآل منثـورة عليهم ووردهم وشقائقهم دنانير ويواقيت مبذولة لهم وكأن نباتها زبرجد ومينا وفيـروزج متـوجة إياهم وتـنزاح بها عنهم الكرب وتزول فـهل يستـوى هذا وقشف الخريف وظلفه ويبسه وقتره وغباره وكـدره وتقبيضه وعبوسه، وتقطيبه وبوسه.

فعيـون الناس فيه سائلة وعيـون الأرض جامدة ووجوه السماء مـغبرة، وخدود الخلق مصفرة، وظواهر الجبال ومفارقها من هول البرد مبيضة وبواطن الورى وصدورها من كـرب الخريف مـسودة والشمـائل من الأرواح عاصـفة وشـمائل البـرية بالأرواح عاسـفة. فـهذا حـال الأغنيـاء منهم فكيف ظنك بالفقراء، الذين ما لهم غطاء ولا وطاء. وإنى مخيلتك فى الغرباء الذين ليس عندهم ثاغية ولا راغية ولهذا كان عمر رضى الله عنه إذا أظل الشتاء كتب إلى كل ناحية جـاءَكم الدعو الحاضر فاسـتعدوا له وإذا سفر الربيع نقـابه واكتسى جلبابه ارتاحت لمـقدمه القلوب وانتـقت الغموم عـمن لا يملك قيد سـيد ولا لبد، ولا يأوى إلـى والد ولا ولد. وأما وصفك طـبع الربيع بالاعتـدال فالله كافيك وحسبك أنك تقول شيئًا وتعلم خلافه وتظهر معنى وتضمر سواه، وإن يدرى جميع الناس أنك مموه فيه، ومزخرف فى ما تخلصه منه وتستصفيه، أو ما يـخاف الكذوب أن يذوب والفـصل المعتـدل لا تزمن أمراضـه، ولا تدمن أوجاعه ولا تقتل أعراضه وهذه قصيرة من طويلة.

قال الخريف

حاصل كلامك أن الربيع ينبت ويورق، ويزهر ويرعد ويبرق، وبقى أن تنظر ما الشىء الذى يثمر ويجنى ويطعم، ويحصد ويقطف وينعم بنعم، ويزرع ويبذر، ويربى ويوفر، وليس ذلك إلا الخريف وتفضيل الخريف على الربيع أمر تفق عليه قد صنفت فيه كتب سائرة، ودونت به أشعار فى أيدى المتأدبين دائرة.

فمن ذلك ما كتب على بن حمزة إلى أبى الحسن بن طباطبا العلوى فقال:

الخريف ثمرة الربيع كالشجرة التى تثمر ولولا الثمر لم تكن فى الشجر فائدة وفى الخريف تحصل أصناف ما يتمول وما يدخر من أقوات الخلائق الممسكة أرواحها إلى الخريف القابل وفيه يكون الزعفران وله على جميع أنوار الربيع فضل وله ورد بطلع كنصل السهم الناوكى وقرن الخشف فى لون الياقوت الأزرق، واللازورد المونق، كالعيون الشهل وأعراف الطواويس المحجلة ويتفتح عن شعر كخيوط الذهب والخطوط الحمر، فى أغلاف الحلل الخضر، وكشرر نار يلوح من حدائق البنفسج كألسن الحيات المنضنضة ويطلع ورد الزعفران البرى فى السنة مرتين ربيعًا وخريفًا غير أن البرى لا يكون له نور الزعفران المستعمل وحشيش الزعفران يشبه أذناب الخيل ويصبر على البرد

فيبقى أخضر ناضراً والدروع مصفـرة وله أصول كعقد من العاج وفلك مغازل الإبريسم ويبـقى تحت الأرض طويلاً فلا يتـغير مـتدثراً بخـمل كصـوف الخز وليف جوز الهند.

وفى الخريـف يجد النخل، ويجـمع أعسـال النحل، وتقطف الأعناب التى فيـها المنافع وفيه اجـتناء الأقطان التى منها لباس الناس وزينتـهم أحياء، وسترهم بعـد الفناء. وفيه يقطف اللوز والجوز والعناب والـنبق وغير ذلك مما يعم نفعه، وفيـه تتلاقح ذوات الأظلاف الأنسية والوحشيـة وفيه مطارح البزاة وفيه يـنضج الأترج وأوراقه تشبه شـقق الفريد إذا خطرت فيه الرياح خـفقت خفق المطـارف الخضر وله ورد كـالفاغـية وهى ثمـرة الحناء ويتفتـق عن مثل خرزات الـزبرجد ثم يعظم وتشـوب خضـرتها صـفرة الرحـيق الأصفـر فإذا خلصت الصـفرة صار ذلك كـقلال ظاهرها ذهب وباطنـها فضـة فيـها حب كاللؤلؤ والمرجان وقشره ينفع العـمود له، وإذا حرك عرف يفوق إرج رياحين الربيع ويسـتخـرج منه دهن أذكى من النار وله حـماض لذيذ يطيب القـدور وينفع المحـزون وإذا تصرمت الرياحـين فى الشتـاء فالأترج غض طرى وقـد اجتمع فيـه وفى العنب الطبائع الأربع فوصف الخريف وذكر فـضائله واقتص خصـائصه كمـا ترى فى النثر، وأما النظـم فمن ذلك ما قـاله أبو الحسن ابن الرومى من قصيدة:

لولا فـواكه أيلول إذا اجـتمـعت ... من كل نـوع ورق الجـور والماء

إذا لما جفلت نفسى متى اشتملت ... على هـائلة الحـالين غـبـراء

يا حـبـذا ليـل أيلول إذا بردت ... فـيه مـضاجـعنا والريح سجـواه

وجمش القـر السارى بصفـحاته ... من الضجـيعين أحشاء وإحـساء

واسفـر القمر الساری بصفحته وریالهـا من صـفـاء الجـو لألاء

یا حبـذا نفحة من ریحه سـحرا یأتیك فیـها من الریحان إمـضاء

بل فیه ما شئت مـن شهر تعهده فی کـل یوم ید لله بیـــضـــاء

ومن ذلك ما قاله عبد الله بن المعتز:

اشرب علی طیب المزان فقد حدا بالصـیف من أیلول أسـرع حـاد

واشـمـنا باللیل برد نـسـیـــمـه فـارتاحت الأرواح فی الأجسـاد

وافـــاك بالأنداء أقـــدام الحـیـــا والأرض للأمطار فی اسـتـعـداد

کم فی ضـمائر تربهـا من روضة بمســـیل مـــاء أو قـــرارة واد

تبـدو إذا جـاد السـحـاب بقطرة وکـــأنما کـانـا علی مـیـعـــاد

وقال أبو عمر عبدان الفرخی یصف الخریف ویفضله علی الربیع:

وأری الربیع عـیون قوم أغـفلت طیب الخریف وسجسج الأسحار

إن کـان ذاك لواضـحـات دراهم بین الریاض نثـــرن من أشـجـار

فلهـا نثار فی الخـریف یفـوقهـا حـــسنا علـی الجنات والأنهـــار

تحکی دنـانیـــرا لنـا أوراقـــهـــا ولهـا فـــضـیلة مطعـم الأثمـار

وخلا الـربیع فمـا لنا فیـه سوی الأرواح والأنـــواء والأمـــطـــار

ومـخـافة الإرعـاد أثر صـواعق ترمی الـبـــلاد وأهلهـــا بـالنار

فـاسعـد بتشـرینین وانعم منهمـا مـــتـــعـــوذًا بـالله من آذار

واشرب علی ورديهـما مشـمولة من زعـــفـــران طالع وبـهـــار

يغنيك عن ورد الربيع وعرفه ... عن شم طيب لطيمة العطار
يا حبذا أيلول جاء مبشرًا ... بالخصب بعد المحل فى الأمصار
والشمس فيه وفيهما ميزانه ... حلت لوزن عادل المعيار
أخذ النهار وليلنا حظيهما ... فالليل عن وزن كنفاء نهار
وكفاك فى ذم الربيع رواية ... ينبيك عنها حامل الأخبار
فاذكر كلام نبينا فى قوله ... صلت عليك ملائك الجبار
إذ قال هل بخروج آذار لنا ... خرف القيامة فيه من بشار

وقال أيضًا يصفه:

آذار جوك للغيوم مسخر ... إذ لست أنت لنا الخريف الأزهر
وضر الشتاء بنا أضر وبرده ... فابعد رشيدًا أنت منك أوضر
ركدت غيومك فى السماء كأنما ... غطى عليها منك لبد أغبر
هذاك أول برده متزايدا ... من ظل كانونين مرا أكدر
والشمس عن نظر الورى محجوبة ... فكأنها عذراء أو هى أستر
تغدو وتمسى فى أسار أصايب ... ولها متى طلعت شعاع أعبر
ما بين نيسان وبينك عامنا ... ضاع الربيع وضل ذاك المنظر
فمتى نريملء السماء وتوبها ... إلا لبود لازورد أخضر
ومتى يقل بكاؤها وربوعنا ... من دمعها خربت وهذا أهدر
ومتى ترى شمس السماء شماته ... بالغيم يبسمها شعاع أنور

أو ليس لليلك والنهار تساويا ... والشر فيك من المنايا أكثر
والفصل يؤذن بالحياة وطيبها ... ما بالنا فيه نموت ونقبر
عامًا أرتك عجائبًا أيامه ... عين التفكر فيه ليلا يسهر
فيه وفى الماضى كسوف سنة ... كل على الإنسان منه يحذر
موت الفجاءة والخوانيق التى ... كلا أصابت بالمنية تنذر
أحكام كل من شهور ستة ... عن قول بطليموس ذلك يؤثر
منها ثلاث قد مضت وثلاثة ... فيها لمن ينجو ويعبر معبر
إن المنجم والطبيب تعجبا ... إذ لم يكن فى العرف مما يذكر
والفيلسوف بذاك أيضًا جاهل ... فهم جميعًا فى المنايا حير
إن كان ذلك فى الورى فى دورها ... سنتين إن صدقت بما قد خبروا
لكن أقول إذا أراد الهنا ... أمرًا إليه يصير عبدًا يؤمر
لا تكذبن فإننا بقضائه ... طوع الردى حتمًا نموت وننشر
والفوز فى الدنيا والآخرى للذى ... منا على البلوى الممحض أصبر

وقال أيضًا فى فضل الخريف على الربيع:

فضل الخريف على الربيع وحسنه ... أن عم كل مدينة آثاره
وله مناظر حسن ذاك وزادنا ... طيب الفواكه كلها أثماره
يصفو الهواء لنا ويبرد ماؤنا ... ويطيب مرقدنا وتحمد ناره
نلتذ فيه صبوحنا وغبوقنا ... عبق النهار وسجسج أسحاره

وأرى المخالف ذا قياس فاسد ... قد ضل لما راقه أنواره

إذ قال ضاهى النور فيه دراهما ... ما للخريف على الرياض نثاره

غفل الركيك عن المجالس كلها ... فيه إذا ما دنرت أشجاره

وتناثرت أوراقها مصفرة ... كالتبر أخلص فاستنار نضاره

والمهرجان فخصب بنعيمه ... فإذا تنورز مقحل آذاره

وتخاف وقع صواعق وبوارق ... فيه وهدم رباعنا أمطاره

وكذا المياه وهد واديها بها ... مهما جرى وتدفقت أنهاره

والمهرجان فورده عن ورده ... مغن يفضل حسنه نظاره

إذ كان فيه منافع ولطيبه ... لم يخل منه طيبه عطاره

والشمس فى الميزان فيه يستوى ... للوزن عدلا ليله ونهاره

يسقيك من حلب الكروم جديده ... سلسا بلا مزاج يطير شراره

لا غول فيه ولا أذى لخماره ... لا كالعتيق مصدر مصطاره

فاشربه مغتنمًا لروح زمانه ... ودع الشقى موفرًا أوزاره

وارتد له طيب الغناء ومزهرا ... تشجى فؤاد متيم أوتاره

والزمر لا تقرع به أسماعنا ... إن الغناء يعيبه مزماره

هذا الزمان وما سواه دونه ... لفتى تساعده به أوطاره

إن كان ينكر جاهل هذا بلا ... عقل فليس يضيرنا إنكاره

فإذا أتى النيروز فاقض حقوقه ... ما دام يسعد ورده أزهاره

وإذا رجـو فيـه القيـامة فـارج أن ... يأتى بوشـك خـروجـه بـشـاره

وارقب طلوع النجم حتى ينقضى ... نيـــســـــان تأن إن دنـا أياره

وقال الباذانى فى نعت الخريف:

وأســعــدك الله بالمـهــرجــان ... إذا مـا انقـضى عنك عـامـا يكر

ولا زلت فى يعـشـة كـالخـريف ... فـإن الخريـف جميـعًـا سحـر

ترى الماء فـــيـــه وذاك الهـــواء ... يجـلوهمـــــا نـسم ريح عـطر

ترى الـزعـــفـــران بأعطافـــه ... يفـــوح التـراب له المـقـشـعـر

وأترجـــه عـــاشـق مـــدنف ... إذا مـا رجـا طيـب وصل هجـر

ولون ســـفـــرجلـه حـــائل ... وأحـســبـه من صـــدود حـذر

وتفـــاحـــه فـــوق أغـــصـــانه ... خـــدود خـــجلن لوحى الـنظر

ومـــا كنت أحـسب أن الخـــدود ... تكون ثـمـارًا لـتلك الشـــجـــر

وقال آخر:

فـــهناك إقـــبـــال الخـــريف ... عـلـيـك بـالـزهـر الجـنـى

تم اعـــتـــدالا فـى الكمـــال ... فـــجـــاء فى خـلق ســـوى

فـــــاق الربـيع بـحـــــسنـه ... ونـســـــــيـم رياه الـذكـى

وينـوب ورد الزعـــــفـــــران ... بـه عن الـنـور الـبـــــــهـى

أهدى إلـيك المـهـــــرجـــــان ... يمـيس فـى زى الـهـــــــدى

ضـد ضـمـخـمـت بالزعـفـران ... وهيـــئت فـى حـــــسن زى

وتحلـت التـــــفـــــاح والأترج ... فـــى نـــظـــم الحـــلـــى

قال الربيع

ما كنت أظن أنك ترضى بحكومة الشعـراء وتقنع بالأشعار الركيكة فى هذا البابا وتكيل علينا بهذا الصاع، بل تهيل بالباع والذراع، فهناك منها السيل الذى يحكى سيل الربيـع. فأما رسالة أبى الحـسن على بن حمزة بن عـمارة الأصبهانى فـهى مقابلة برسالة له أخرى فى وصف النيـروز كتب بها إلى أبى مسلم محمد بن بحر فقال:

هذا يوم عـجـمى مشـرق الأرجـاء، بهى الرواء، ممتع الذكـاء، منيـر السماء، صافـى الهواء، اعتدل مزاجه واستـولى ليله ونهاره ترتاح له القلوب وتهتز له النفوس وتستـريح إليه الأرواح يروق العيون ويؤنس القلوب، ويجلو الكروب، يوم مصطلح فـى تفضيله على الأيام يهـيج السرور ويصبى الكبـير ويطرب الحليم ويذكر الـشيب الشباب ويـجمع المتفرق ويـؤلف المتنافر ويدنى المتباعد له نسيم المسك المشوب بالعنبر المداف يضاحك أرجوانه أقحوانه جلناره بهاره وخيره ياسمـينه ووردة نرجسه فتبرج بعد التعنس، وتنـضر بعد التيبس، وابتـهج بعد التـعـبس توشح بالزبرجـد وتآزر بالإستـبـرق وتحلى بالياقـوت والمرجان، ونفـى عن الفتيـان خواطر الأحـزاب، فهمـمهم عليـه موقـوفة، وأشغالهم إليه مصروفة، وقلوبهم بالملاهى فيـه مشغوفة، وعيونهم إليه روان، ونفوسهم عليه حوان، والظبا فيه تتنـازى والطيور تتبازى، وناطقها فيه يطرب فيرتجل الأغانى ويقرب الأمـانى ويغنى الشرب فيه عن كل صوت شج مطرب

إذا تحاذت تطارحت اللحـان بفصاحة سحـيان، وخال بن صفـوان، فرجحت الأغصان بالنبرات والنغـمات فهن بمخضرة الرياض ساجعـة، وعيون الحوادث عليها هامعة.

فمتى خطرت الرواعد ولمعت البوارق مرت الصبا أخلاف العهاد فاهتزت له الربا والوهاد، وتلفعت بورود اليمن وتبسمت الأرض عن ثغور الأقحوان، بكتـها دموع الغـيث فى خيـر أوان، وأجل زمان، وتمايلـت البقاع بـالأزاهير الناضرة تمايل النشوان، يميس فى الأرجوان، واختالت القيعان والجنان، ببدائع الألوان، زاهرة بأنواع نوار الغـياض، وأصنـاف أصبـاغ الرياض، من شقـائق حمر ترف بقطرات الدموع كـالمشتاق، وفواقع صفر كـألوان العشاق، وأزاهير رائقة، مشـفقة مونقة، مـونسة هى الدهر ضاحكة لبكاء السمـاء محيطة بواد الزرنروذ وهى كالمقر الصائل إذا جرجر ورمى بلعابه والضيغم الهائج إذا زمجر وزأر فى غيله فإذا اصطكت أمواجه، وأطبق ضجاجه، وهمهم وزخر وجاءت لواذ به معتجرات بمطارف دكن أقبلت ضروب نباته عائمات موشحات بتهاويل رقمـها المنمنم زهره مـختالات عـالمات بمجانفة الأمـواج آمنات شبـا الجوارح فنسأل الله تمـام النعمة وإليـه أرغب فى أن يجعلك بـالنعمة تمامًـا، وللمكارم نظامًا، وللدنيا قوامًا، بمنه.

ووصف على بن عبيدة الريحانى الربيع فقال:

الربيع رشـيـق القـد طلق الوجـه كـريم الأخـلاق لـين الأعطاف حلو الشمـائل، جم الفضائل، عـطر الرائحة سليم الناحيـة فاخر البـزة بهى المنظر سرى المخبر.

ووصفه ابن أبى طاهر فقال:

الربيع تام الجمال، حسن الدلال، عظيم الخطر، لطيف المنظر جميل الذكر، ذكى العطر لذيذ النسيم، طيب الشميم، غزير النعيم، قليل الهموم، ظليل الغموم.

وأما النظم فالقصيدة الأولى الألفية مقابلة بمثلها من قول بعض الشعراء:

طلع الربيع بغرة زهراء ... تجلى العيون بها الأقذاء
وبدت وجوه الأرض بعد قطوبها ... مفترة ببدائع الآلاء
فالأرض فى حلل وحلى مونق ... فى ما حبته به يد الأنواء
والروض يضحك عن بكى وسميه ... بتلألؤ من صنعة الأنداء
وترى الرياض كأنهن عرائس ... يرفلن من صفراء فى حمراء
أوما رأيت الأرض غبراء الربى ... حتى اغتدت فى بردة خضراء
إن الربيع لبهجة الأرض التى ... منها تكون جوهر الأشياء
وله هواء كالهوى من رقة ... دقت عن الأوهام والأهواء
وإذا تنفس بالنسيم نسيمه ... كتنفس الصبوات فى الأحشاء
زمن جديد للسرور تجدد ... فيه استحلت حركة الصهباء

وأما القصيدة الدالية فهى مقابلة بما قال الحمدوى:

حى الربيع فقد أتاك حميدا ... بدلت من خلق الزمان جديدا
خلع السحاب على الثرى وشيا ترى ... منه الثرى ذا ثروة محسودا

روض أفادته السحاب صنائعًا أضحى بها كل البلاد سعيدا

نشأت سحابته عليه فأنشأت نورا تراه ناشئًا ووليدا

فكأنها عدن لدى أكنافه قد نشرت فيه التجار برودا

عن أقحوان ضاحك متبسم يفتر عن برد يخال عقودا

فثغوره من لؤلؤٍ ولثاته ذهب بريق سحابه قد جيدا

ومعصفرات من شقائق أُلبست مقلاً ترى فيها محاجر سودا

فانهض بطرفك حيث شئت تجد له من عطفه وردًا يخال الخدودا

تحكى لك الوجنات قد أشعرتها خجلاً فشرب لونها توبدا

قد وشحت أكنافه ببنفسج خنث يغازل غانيات غيدا

ترى العذارى من بهار باهر للشمس تحسب نظمهن فريدا

زهر يظل الطرف فى أكنافه حسرا لرونقه النضير بليدا

فإذا الرياح مشين فيه ظللن من كسل النعيم رواكعًا وسجودا

يصددن صد متيم متهزم انحى له عذاله تفنيدا

وأما القصيدة الرائية الأولى فمقابلة بما قال أبو تمام وبينهما بون بعيد:

رقت حواشى الدهر وهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر

نزلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر

مطر يروق الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر

غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمر

يا صاحبى تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارا مبصرًا قد شابه ... زهر الربى فكأنما هو مقمر

دنيا معاش للورى حتى إذا ... جاء الربيع كأنما هى منظر

أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورًا تكاد له القلوب تنور

من كل زاهرة ترفرف بالندى ... فكأنها عين إليه تحدر

محمرة مصفرة فكأنها ... عصب تيمن فى الوغى وتمضر

من فاقع غض النبات كأنه ... در يشقق قبل ثم يزعفر

أو ساطع فى حمرة فكأنما ... يدنو إليه من الهواء معصفر

صغ الذى لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر

والقصيدة الثانية الرائية مقابلة بما قال البحترى:

ألم تر تغليس الربيع المبكر ... وما حاك من وشى الرياض المنشر

مررنا على بطياس وهى كأنها ... سبائب عصب أو زرابى عبقر

كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى ... إليها سقوط اللؤلؤة المتحدر

وفى أرجوانى من النور أحمر ... يشاب بافرند من الروض أخضر

إذا ما الندى وافاه صبحًا تمايلت ... أعاليه من در نثير وجوهر

إذا قابلته الشمس قلت التفاتة ... لعلوة فى جاديها المتعصفر

والقصيدة الثالثة مقابلة بما قال ابن المعتز:

أما ترى بهجات الروض فى السحر ... فوق الندى واتساق الورد فى الشجر

إذا السحاب سقاها فى الدجى خلعت بعد السحاب عليها الشمس فى البكر
والروض من زاهر زاه بنظرته وكامن منه فى الأغصان منتظر
حسبى من الورد توريد الخدود كما حسبى مسرة محسود من البشر

والقصيدة الرابعة مقابلة بما قال ابن الرومى:

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر
وهالها مصطنعًا لقد شكر أثنت على الله بآلاء المطر
والأرض فى روض كأفواف الخبر تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

هذا ما قيل من الأشعار، ولو استقصيت ما قيل فى فضل الربيع لأدى ذلك إلى الإكثار، ويكفيك من فضائله أنه ما ينبغ شاعر إلا وله شعر فى الربيع وأما الآثار، التى جاءت بها الأخبار، فكثيرة أيضًا والنوروز الذى هو عنوان الربيع تعظمه الفرس على سائر الأيام وتقول إنه يوم فيروزى روحانى فيه تحركت الأفلاك السبعة بعد أن كانت ساكنة وفيه دارت الكواكب السبعة فى أفلاكها بعد أن كانت واقفة وفى ساعة منه يزخر فلك فيروز بمعانى الأرواح لإنشاء الخلق وفيه خلق جرم الشمس ولذلك يقال أسعد ساعات النيروز ساعة الشمس.

وقال الحسن بن سهل: سأل المأمون على بن موسى الرضا عن النيروز، فقال: يوم عظمته الملائكة والأنبياء والملوك، فالملائكة عظمته لأنهم فيه خلقوا، والأنبياء عظمته لأنه أول يوم طلعت فيه الشمس، والملوك عظمته لأنه أول يوم من الزمان.

وعن عبد الصمد بن على بن عبد الله رفعه إلى جده عبد الله بن عباس قال أهدى إلى النبى ﷺ فى يوم نيـروز جام فضـة عليه حلاوة فقـال ما هذا فقالوا يوم النيروز، فقال: وما النيروز، فقالوا: عيد الفرس. فقال: نعم اليوم الذى أحيا الله فـيه العسكرة. قالوا: ومـا العسكرة. قال القوم الـذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فأحـياهم الله فى هذا اليوم وردَّ عليهم أرواحـهم وأمر السمـاء فأمطرتهم مطرًا كـالشنف، فلذلك اتخذ الناس صب المـاء فى النيروز سنة فأكل الحلاوة وقسمها بين أصحابه، وقال نيروزًا لنا كل وم.

ويقـال أن فى النيروز أظهـر جم الملك مقـادير الأشيـاء وتبرك الـفرس صبيحته قبل الكلام بأن تلعق ثلاث لعـقات من عسل وتتبخر بثلاث قطع من شمع وتزعم أنه شفـاء من ألف داء زعم بعضهم أن من ذاق السكر صبيـحته قبل الكلام وأدهن بالزيت دفع عنه فى عامه أنواع البلايا.

* * *

قال الخريف

رويت لنا يا بنى أشعارًا فى صفة الربيع وفضائله، وما تعرضت لنقص الخريف ورزائله، وعلى المناظر أن يقوى حججه ودلائله ويوهن براهين خصمه وشواهده ليتضح الحق ويفتضح الباطل كما فعلنا ذلك، وإن لم نستوفه وأتينا على جمل من ذلك ولم نستقصه.

وأما ما ذكرت من فضيلة النيروز فللمهرجان أيضًا فضائل لا تحصى ومناقب لا تستقصى تزعم الفرس وغيرهم من الأمم أنه يوم خلق الله فيه الأجساد قرارًا للأرواح، وفيه دحا الأرض دحوًا ونشر الخلائق وهو يوم أفريغونى وعيد أفريذونى. وفى ساعة منه يتنفس فلك أفريغون لتربية الأجساد وفيه خلق الله القمر يوم خلقه كرة سوداء، فإذا كان يوم من المهرجان جلاها بضوئه، ويقال أن القمر فى المهرجان يوفى على الشمس وأسعد ساعاته ساعة القمر، ويقال أن قلة جبل شاهين ترى طوال أيام الصيف سوداء حتى صبيحة المهرجان، ترى بيضاء كأن الثلج عليها.

وزعم المؤبد المتوكلى أن يوم المهرجان يطلع الشمس بمهامير الواسط بين النور والظلمة وتتحرك الأرواح فى الأجساد، ولذلك سمته الفرس ميركان وتتيمن الفرس صبيحة المهرجان بأكل الرمان وشم ماء الورد وهو يوم أفريذونى مر أفريذون فى طلب بيوراسف فظفر به يوم المهرجان الأكبر.

فهذا ما حضر من فضائل الخريف وأولاها وأولاها بأن يذكر أن الخريف فى هذا الوقت الذى نحن فيه حاضر لخدمة قوام الملك ونظام الدين أطال الله بقاءه، وأدام فى درج المعالى ارتقاءه، والربيع غائب عن حضرته، آنسها الله بدوام نعمته، مشتاق إليها والحاضر خير من الغائب والموجود خير من المعدوم.

فهذا آخر ما جرى بين الشيخ والفتى وافترقا بعد ذلك..

والسلام والحمد لله أولاً وآخرًا.. وباطنًا وظاهرًا..

والصلاة على النبى محمد وآله أجمعين..

وكتب يوم الخميس فى ثانى عشر ربيع الآخر..

سنة إحدى وأربعين وأربع مائة.

(كذا بأصله)

* * *